

الفصل الأول
الملك فرديناند
والملكة إيزابيلا واليهود

obeikandi.com

منذ بداية اعتلاء إيزابيلا وفرديناند العرش عام ١٤٧٤، عقد هذان الملكان العزم على الحفاظ على التوازن بين اليهود والمسيحيين وعلى التعايش بينهم في سلام ووثام. وتدل الشواهد على خلو ملوك إسبانيا على الصعيد الشخصي من المشاعر المعادية للسامية. ففي عام ١٤٦٨ كان الملك فرديناند يستخدم طبيياً يهودياً من كاتالونيا يدعى دافيد أينا سايا، فضلاً عن أن فرديناند وإيزابيلا ربطتهما ببعض الأطباء ورجال المال اليهود صداقة حميمة. تقول الملكة إيزابيلا عام ١٤٧٧ في هذا الشأن: «إن سائر اليهود في مملكتي هم رعيتي وتحت رعايتي وحمائتي، ويتعين على الدفاع عنهم وتقديم المساعدة إليهم وإقرار العدل بينهم». وأيضاً وفرت هذه الملكة في عام ١٤٧٩ الحماية للجالية اليهودية في كاكيريس. وكثيراً ما كان ملوك إسبانيا يقفون في وجه البلديات والمحليات الإسبانية التي تفرض القيود على اليهود وتحد من حرياتهم. ففي عام ١٤٧٥ صدرت أوامر ملكية إلى مدينة بيلباو لإلغاء القيود التجارية التي فرضتها على اليهود. وفي عام ١٤٨٠ صدر أمر ملكي إلى مدينة أولميدو لبناء بوابة في الجدار المحيط بمساكن اليهود لتمكينهم من الوصول إلى ميدان المدينة، ومعنى هذا أن المحليات والبلديات هي التي كانت تناصب اليهود الإسبان العدا في حين أن الملوك الإسبان كانوا يدافعون عنهم ويوفرون الحماية لهم.

يتضح لنا مما تقدم أن اليهود في إسبانيا عانوا من سوء معاملة البلديات والمحليات لهم، ففي عام ١٤٧٦ قامت سلطات مادريجال بسن قوانين معادية لليهود لإرغامهم على تمييز أنفسهم بلبس شارة مميزة ومنعهم من ممارسة الربا، واحتج اليهود في أفيلد على هذه القيود ورفضوا إقراض المسيحيين أي نقود لحين إلغاء القوانين التي تحرم الربا، وأيضاً احتج اليهود عام ١٤٨٠ على سلطات طليطلة التي حاولت اتباع سياسة عزل اليهود وتقييد حركتهم في أحياء سكنية خاصة بهم (الجيتو). وفي عام ١٤٨٤ فرضت مدينة بوجوس حظراً على اشتغال اليهود ببيع الطعام، كما صدرت أوامر في ١٤٨٥ لإغلاق أحيائهم في أيام الأعياد المسيحية. وفي عام ١٤٨٦ صدر أمر من البلديات لتحديد عدد اليهود الذين يقطنون الجيتو (ولكن الملك تدخل فيما بعد لإلغاء هذا الأمر). وليس هناك شك في أن رجال الدين المسيحي في مدينة سرقسطة أجبوا المشاعر المعادية لليهود في أواخر القرن الخامس عشر.

وكما أسلفنا كان الملوك يعاملون الأقليات اليهودية بتسامح واضح، فضلاً عن أن هذه الأقليات كثيراً ما كانت تضرب عرض الحائط بالقوانين التي تسنها المحليات، الأمر الذي وفر قدرًا لا بأس به من الحرية لليهود في إسبانيا. وبحلول عام ١٤٨٠ بدأ ملوك إسبانيا يقتنعون نتيجة تحول أعداد هائلة من اليهود للدين المسيحي (عن غير اقتناع) بعدم جدوى فصل الجاليات اليهودية عن المسيحيين. وبإنشاء محاكم التفتيش في إسبانيا عام ١٤٨٠ (التي تأخر ظهورها عن محاكم التفتيش الأوروبية بنحو قرنين من الزمان)، اكفهرت حياة اليهود وتلبدت بالغيوم، ومما زاد من نكدهم أنهم لا قوا في بعض الأحيان خسفاً من بنى جلدتهم الذين تحولوا إلى الدين المسيحي أكثر من الاضطهاد الذي لاقوه على أيدي المسيحيين أنفسهم.

ونحن نرى أن اليهود في بوجوس في عام ١٣٩٢ يشكون من أن بنى جلدتهم الذين تحولوا حديثاً إلى المسيحية، وخاصة من أصبح منهم قساوسة ورجال دين، يمعنون في اضطهاد اليهود. ولهذا توترت العلاقات في كثير من الأحيان بين اليهود وبين بنى جلدتهم الذين نبذوا اليهودية ليعتنقوا المسيحية، في حين ذهب أحبار اليهود في أوائل القرن الخامس عشر إلى أن بنى جلدتهم أرغموا على اعتناق الدين المسيحي، ولكن نراهم في منتصف هذا القرن يغيرون رأيهم ويقررون أن زملاءهم اعتنقوا المسيحية طواعية وعن طيب خاطر.

وهكذا نشأ صدع في صفوف اليهود وسرت روح التوتر والشك والتناوب بينهم. ومما يدل على تدهور علاقة اليهود باليهود أن كثيراً منهم عند إنشاء محاكم التفتيش لم يجدوا غضاضة في الشهادة ضد اليهود الذين تحولوا إلى الديانة المسيحية. والجدير بالذكر أن اليهود الصنف كانوا أوفر حظاً من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية من حيث إن قوانين محاكم التفتيش لا تطبق عليهم. وكثرت وشاية اليهود باليهود المتحولين إلى النصرانية، فنحن نرى في مدينة كالاتا بود (في مملكة أراجون) عام ١٤٨٨ يهودياً اسمه أكاتس دى فيونس يعامل باحتقار من جانب اليهود والمسيحيين على حد سواء باعتباره كاذباً وغشاشاً. كان هذا اليهودى السيئ الخلق يدلى بشهادته الباطلة أمام محاكم التفتيش ضد بنى جلدته المتحولين إلى النصرانية متهماً إياهم بالتظاهر بالمسيحية في حين أنهم كانوا في الواقع يمارسون طقوس ديانتهم اليهودية. ونحن نقرأ عن يهودى يقيم في مدينة أرناندا في عقد الثمانينات في القرن الخامس عشر يبحث عن بعض اليهود المستعدين للشهادة الزور ضد يهود آخرين مدفوعين إلى ذلك بالكراهية والعداوة الشخصية. ويخبرنا هيرناندو ديل بولجار عن قيام اليهود في طليطلة بالإدلاء بالشهادة الزور ضد زملائهم المتحولين إلى الدين المسيحي، وعندما علمت الملكة بكذب وشايتهم أمرت بالقبض عليهم وتعذيبهم. ونفس الشيء تكرر في مدينة

صوريا في عام ١٤٩٠، حيث نرى طبيباً يهودياً يشي بنى جلدته الذين اعتنقوا النصرانية مدعيًا أن مواطنًا يهوديًا وصف الراهب توركويادا بأنه ألعن رجل في العالم وبأنه مهرطق شرير، وفي مدينة أوكليس قام اثنا عشر يهوديًا في عام ١٤٩١ بتبليغ محاكم التفتيش بأن عددًا من اليهود الذين يتظاهرون بالنصرانية يمارسون شعائرهم اليهودية. وطبقًا لما يقوله الخبر اليهودي كامسالي، فقد طلبت محاكم التفتيش من المعابد اليهودية أن تتولى إلزام اليهود بالتبليغ عن بنى جلدتهم الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية.

ولم تعد وشاية اليهود باليهود بأية فائدة لهم، بالعكس كانت نتيجتها أن بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية في عقد الستينيات من القرن الخامس عشر طالبوا بضرورة عزل اليهود عن المسيحيين، وأيضًا دفعت هذه الوشايات محاكم التفتيش إلى السعى إلى طرد عدد من اليهود.

ففي نهاية عام ١٤٨٢ أمرت محاكم التفتيش بطرد جانب من اليهود الذين يقطنون الأندلس، وتركت لهم حرية اختيار العيش في مناطق إسبانية أخرى. وأيضًا صدر أمر في يناير عام ١٤٨٣ بطرد اليهود من أسقفيات إشبيلية وقرطبة وكاديز، ولكن الملك أرجأ تنفيذ هذا الأمر ولم يتم استبعادهم من إشبيلية إلا في صيف عام ١٤٨٤، ولكن يجدر بنا أن نتذكر أن أحد أسباب طرد اليهود هو الخوف من تعاونهم مع حكام مملكة غرناطة المسلمين الذين هاجمهم جيوش الملك فرديناند، ولكن أوامر الطرد لم تطبق على عدد كبير من اليهود في كاديز وقرطبة، ففي عام ١٤٨٦ أصدرت محاكم التفتيش في أراجون أمرًا بطرد اليهود من أبرشيات سرقسطة وأبارسن وترويل، ولكن السلطة الملكية أرجأت تنفيذ هذا الأمر ثم قامت بإلغائه في وقت لاحق. وفي نفس الوقت قامت بعض المدن بتنفيذ سياسة طرد اليهود متجاهلة اعتراض الملك واحتجاجه.

وعلى الرغم من تدخل الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا المتكرر لحماية اليهود من الاضطهاد، فإن توركويادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش الإسبانية (ولصيق الملكة إيزابيلا) استطاع إقناعها بضرورة عزل اليهود عن المسيحيين. وعندما اتضح لها أن اتباع سياسة الطرد المحلى لليهود وإعطائهم حرية اختيار العيش في مناطق إسبانية غير مجدية، لجأ إلى طردهم من البلاد طردًا شاملًا.

كانت الأقليات اليهودية التي طردتها البلاد الأوروبية في القرون الوسطى من أراضيها ضئيلة في حين كانت أعداد اليهود المطرودين من إسبانيا آنذاك كبيرة.

ولم تكن الأقلية اليهودية الإسبانية الوحيدة التي تعرضت للملاحقة والأذى، فقد امتد الأذى إلى الأقلية المسلمة. وابتداء من عام ١٤٨٠ كانت جميع موارد الاقتصاد الإسباني موجهة لشن

الحرب على المسلمين المتمركزين في غرناطة، وفي عام ١٤٩٠ اتهم المسيحيون المسلمين في جوادا لاجاراً بتحويل طفل يهودى إلى الدين الإسلامى، وعلى الرغم من أن المسلمين تعلقوا بأن التحويل من دين إلى آخر في إسبانيا كان أمرًا عاديًا فقد أصدر المجلس الملكى الإسباني قرارًا بعدم جواز تحويل اليهود إلى مسلمين، وكذلك عدم جواز تحويل المسلمين إلى يهود. كما أن القانون الإسباني حظر على المسيحيين اعتناق أى من الديانتين اليهودية والإسلامية منذ عام ١٢٥٥ على أقل تقدير. وعندما قام المسيحيون الإسبان أثناء حربهم ضد غرناطة بالقبض على جماعات مسيحية اعتنقت الدين الإسلامى عقب سقوط مدينة مالاجا (مالقا)، نفذت حكم الإعدام الفورى فيهم، ولكن على النقيض من ذلك نرى الكنيسة الكاثوليكية عندما اكتشفت وجود حالات كثيرة من المسلمين المتحولين إلى المسيحية رحبت بنبذهم الإسلام.

وتردد الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا بعض الوقت قبل الموافقة على اتباع سياسة طرد اليهود؛ نظرًا لأن طردهم يسبب خسارة فادحة؛ لأن اليهود كانوا يدفعون الضرائب المفروضة عليهم مباشرة إلى الخزانة الملكية. وساهمت هذه الضرائب في تمويل الحرب التى شنها الملك فرديناند ضد المسلمين في غرناطة، فضلًا عن أن كثيرًا من الإسبان المسيحيين تحمسوا لطرد اليهود للتخلص من قدراتهم التنافسية العالية في مجال المال والاقتصاد. ويبدو أن الملك فرديناند اتخذ قراره بطرد اليهود من البلاد بدوافع دينية بحتة، وشجعه على هذا الإجراء سقوط غرناطة المسلمة في يده في يناير ١٤٩٢، واعترف الملك أن طرد اليهود أضر بدخله وموارده الاقتصادية. وفي ٣١ مارس من ذلك العام أصدر الملك والملكة مرسومًا بطرد اليهود من كستيليا وأراجون، وخيرهم المرسوم بين اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد، فاعتنقها الكثيرون منهم عن غير اقتناع.

وبرر المرسوم سياسة طرد اليهود بأن اليهود المتحولين إلى النصرانية يتعرضون للأذى بسبب اتصالاتهم المستمرة وتعاملاتهم اليومية مع بنى جلدتهم الذين لا يكفون عن إغرائهم بنبذ المسيحية والعودة إلى دينهم الأصلي.

وقد عجزت محاكم التفتيش عن حل هذه المشكلة الشائكة على مدى اثني عشر عامًا. وبالنظر إلى قلة أعداد اليهود المطرودين من الأندلس فقد قررت السلطات الإسبانية أن الحل لهذه المشكلة لا يكمن في الطرد بقدر ما يكمن في ضرورة عزل اليهود عزلاً كاملاً عن المسيحيين ثم طردهم.

وعندما علم اليهود بنية الإسبان المتجهة إلى طردهم، قام أحد أثريائهم، إسحاق أبرافاتيل، على رأس وفد من بنى جلدته لمقابلة الملك والتفاوض معه، ولكن الوفد فشل في إثباته عن عزمه فعرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال نظير الرجوع عن قراره، ويقال إن الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش الراهب توركويدا عندما سمع بأمر هذا العرض استشاط غضبًا في وجود الملك وقذف بثلاثين

قطعة من الفضة على المائدة، وهى الثمن الذى قبضه يهوذا لتسليم السيد المسيح إلى قتلته. وطالب توركوبيادا الملك بأن يخبره بالبلغ الذى عرضه عليه اليهود لخيانة المسيح مرة أخرى. وفى مقابلة ثالثة أجراها زعماء اليهود وأثرياءهم مع الملك، اتضح لهم بما لا يدع مجالاً للشك عزمه على طردهم، فالتجأوا إلى الملكة إيزابيلا لعلها تستجيب لهم، ولكن تبين لهم أنها تؤيد الملك فى سياسته تأييداً كاملاً.

والواقع أن الاقتراح بطرد اليهود جاء من محاكم التفتيش التى قامت بصياغة مرسوم الطرد بلغة تقطر بكراهية السامية. وبعد أن اتبع الملك فرديناند منذ عام ١٤٨١ سياسة الطرد الجزئى لليهود نراه بعد ذلك ينتهج سياسة الطرد الشامل لهم استجابة لرغبة محاكم التفتيش.

ويتضح لنا من نسخة الخطاب الذى أرسله هذا الملك إلى حاكم مدينة أراندا موافقته المطلقة على سياسة طرد اليهود، إذ يقول فى خطابه:

«إدراكاً من المكتب المقدس التابع لمحاكم التفتيش لما يتعرض له بعض المسيحيين من أخطار نتيجة اتصاهم باليهود، فإن المكتب رأى ضرورة طرد اليهود من جميع أراضينا وممالكنا، كما أنه أقنعنا بالموافقة على هذا الطرد وتأييده. وهذا ما نقوم بعمله الآن بسبب أفضال المكتب المقدس والالتزامات التى يحمها علينا، ونحن نفعل هذا على الرغم من الخسارة الفادحة التى تلحق بنا؛ حيث إننا نستهدف ونفضل خلاص الأرواح أكثر مما نفضل الفائدة التى تعود علينا وعلى الأفراد».

وقد أكد الملك على الدور الذى تضطلع به محاكم التفتيش فى خطابات أخرى، فعلى سبيل المثال تذكر خطاباته الأخرى أنه تم تبليغ المفتشين فى محاكم التفتيش فى سرقسطة بأخذ رأى الكاهن سانت كروز، ويضيف الملك قوله: «ومن ثم قررنا كما قرر هذا الكاهن ضرورة طرد اليهود».

والجدير بالذكر أن معظم اليهود فى إسبانيا كانوا خاضعين لسلطة الملك القضائية فى حين أن البعض لم ينطبق عليه هذا الطرد. فاليهود الذين يعيشون فى الأراضى التابعة لدوق ميدناسلى مثلاً لم ينطبق عليهم الأمر الملكى بطرد اليهود من الأندلس فى عقد الثمانينيات من القرن الخامس عشر، مما دفع الملك إلى أن يوضح للنبلء والحكام (مثل كاتالان دوق كاردونا الذى افترض أن اليهود الخاضعين لسلطانه لا ينطبق عليهم المرسوم الملكى) أن المرسوم الملكى يشمل جميع اليهود بدون استثناء، وحتى يشجع الملك الحكام الإسبان على طرد اليهود، منحهم ممتلكاتهم.

وكما أسلفنا أدت سياسة الطرد هذه إلى تحول الكثيرين منهم إلى الديانة المسيحية لدرجة أن

الحبر اليهودى فى قرطبة تنصر على أيدى الكاردينال مندوزا وبعض ممثلى الكرسى الباباوى، وأيضاً تحول إلى المسيحية رئيس قضاة اليهود فى كستىلا إبراهيم سنيور وهو فى الثمانين من عمره على يدى الملك والملكة؛ حيث إنه كان رئيس الخزانة الملكية ويعتبر نموذجاً لليهودى الذى استفاد من خدماته وإخلاصه للملك فى مساعدة بنى جلده وتوفير الحماية لهم، فضلاً عن زميله رجل المال أبرفاتيل الذى أصبح الناطق باسم اليهود، وأخذ يتفاوض مع السلطات الإسبانية على شروط هجرة اليهود من إسبانيا.

وقد انتشرت القصص عن وحشية اليهود فى أرجاء إسبانيا، ومن بينها قيام بعضهم بقتل طفل مسيحى فى سيجوفيا عام ١٤٦٨، الأمر الذى دفع جوان أرياس دافيلد أسقف سيجوفيا، وهو يهودى تحول إلى الدين المسيحى إلى معاقبة ستة عشر يهودياً لتورطهم فى ارتكاب هذه الجريمة، فضلاً عن قصة قتل اليهود لطفل مسيحى فى مدينة لاجارديا فى منطقة طليطلة عام ١٤٩١. وقيل إن ستة يهود من المنتصرين اشتركوا فى ارتكاب هذه الجريمة، كما قيل أنه تم صلب الطفل المسيحى وانتزاع قلبه من مكانه من أجل صنع تعويذة سحرية للقضاء على المسيحيين، وقد تم تنفيذ حكم الإعدام فى مرتكبى هذه الجريمة فى أفيلد فى نوفمبر ١٤٩١، وقد بلغ ذبوع هذه القصة درجة أننا نجد رواية مطبوعة لها فى برشلونة. ولا شك أن مثل هذه الشائعات التى سرت بين الإسبان جعلت الكثيرين مستعدين لقبول إجراء طرد اليهود والافتناع به، ونفس هذه القصة سبق ذبوعها فى إنجلترا (راجع كتابى «المهرطقة فى الغرب» دار سينا للنشر ١٩٩٧).

ولا بد أن اليهود الإسبان كانوا يدركون أن عمليات طرد اليهود كانت تجرى على قدم وساق فى البلاد الأوروبية المجاورة. ففى محافظة بروئنس التى أصبحت جزءاً من فرنسا، اشتدت حدة معاداة السامية حتى انتهت بطرد اليهود من أراضيها، كما تصاعدت حدة معاداة السامية فى دوقيات إيطاليا فى بارما وميلانو اللتين قامتتا بطرد اليهود هناك فى عامى ١٤٨٨ و ١٤٩٠. ويلاحظ أن المرسوم الإسبانى الخاص بطرد اليهود يختلف عما حدث فى بروئنس الفرنسية وبارما وميلانو الإيطالية فى أنه لم يقتصر على طرد اليهود، بل خيرهم بين الطرد والتحول للدين المسيحى، وهو تحول رحبت به الكنيسة الإسبانية. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الملك فرديناند كتب بعد مضى شهرين من إصدار مرسومه الخاص بطرد اليهود إلى توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش ما يلى: «كثيرون يرغبون فى أن يصيروا مسيحيين، ولكنهم يخشون هذا بسبب محاكم التفتيش.. ومن ثم فىنى أطلب إليك أن تكتب إلى المحققين وتأمروهم ألا يتخذوا أية خطوات ضدهم إذا ثبت لهم وجود شوائب تشوب سلوك اليهود المتحولين إلى المسيحية، وخاصة إذا لم تكن هذه الشوائب جسيمة».

وعند طردهم من إسبانيا راودت اليهود أحلام مغادرة إسبانيا من أجل التوجه إلى أورشليم أو أرض الوعد، كما رأى المسيحيون في انصهارهم مع المسلمين في غرناطة إيداناً بتدمير اليهود بدورهم. ولا أحد يعرف على وجه التحديد عدد اليهود النازحين من كستيلا وأراجون، فبعض المؤرخين يقدرونهم بمائة وسبعين ألف عائلة، في حين يقدر آخرون عددهم بثمانين ألف نسمة، وعلى أية حال كان طرد اليهود من إسبانيا مأساة بكل المقاييس. وفي هذا الصدد كتب إسحاق أبرافينال يقول: «رحل من كافة المناطق التابعة للملك ثلاثمائة ألف يهودى سيراً على الأقدام»، وكان اليهود في أراجون أسوأ حظاً من يهود كستيلا؛ حيث إن مجازر ١٣٩١ قضت على ربع تعدادهم. وفي مملكة بلنسية (فالنسيا) لم يزد عدد اليهود المقيمين هناك على نحو ألف يهودى عاش معظمهم في مدينة ساجنتو. وفي نافار كان هناك نحو مائتين وخمسين أسرة يهودية، ومن ثم يمكن القول أن عدد اليهود الذين عاشوا في إسبانيا عشية طردهم عام ١٤٩٢ زاد على ثمانين ألف نسمة.

ويصف لنا برنالديز محنة اليهود المطرودين من إسبانيا. فقد ساعد أثرياء اليهود جانباً من فقرائهم في تحمل نفقات التهجير، ولكن اليهود المعدمين لم يجدوا أمامهم سوى مخرج واحد من هذه المحنة وهى العماد واعتناق المسيحية. حتى اليهود الذين كانت لديهم ممتلكات لم يستطيعوا بيعها وتحويل عائدها إلى سبائك ذهب أو فضة؛ حيث كان محظوراً إخراج هذه السبائك من البلاد. ونجم عن ذلك كساد رهيب في ممتلكات اليهود الذين عجزوا عن أن يجدوا مشترياً لهم لدرجة أن اليهودى كان يضطر إلى بيع منزله مقابل حمار، أو كرمته مقابل كسوة من القماش، واكتظت السفن الناقلة لهم بأعداد غفيرة منهم، وأحياناً كانت العواصف تضطر هذه السفن إلى الرجوع من حيث أتت، أى إلى الشواطئ الإسبانية مما دفع المئات من ركبها إلى اعتناق المسيحية من أجل البقاء في إسبانيا. أما اليهود الذين استطاعوا الوصول بأمان إلى شواطئ شمال أفريقيا فقد تعرضوا للنهب أحياناً والقتل أحياناً أخرى، فضلاً عن أن سكان شمال أفريقيا ألقوا القبض على الكثيرين منهم واستعبدوهم وباعوهم في سوق النخاسة، في حين غرق آخرون في البحر قبل وصولهم إلى بر السلامة، وأحياناً كانت النيران تشتعل في السفن التى تقلهم فيموتون حرقاً في عرض البحر، كما أن الأمراض حصدت حياة بعضهم، ولم ينج من كل أنواع هذا العذاب غير عدد ضئيل منهم.

ورغم كل هذا الشقاء الذى كابده اليهود فإن عدد الذين هاجروا من إسبانيا بالفعل لم يكن بالضخامة التى قد يتصورها البعض؛ نظراً لأن مئات الألوف منهم آثروا التحول إلى الدين المسيحى. وتشير الدلائل إلى أن نصف تعداد يهود إسبانيا فضل التحول إلى الدين المسيحى على الطرد. فقد قامت أغلبية الجالية في مملكة أراجون باعتناق الدين المسيحى، ومن المحتمل أن يكون يهود كستيلا قد فعلوا نفس الشيء. وبالطبع كان أحد الدوافع القوية للتحول إلى النصرانية هو

رغبة اليهود في الاحتفاظ بممتلكاتهم، ومع ذلك فإن كثيراً من اليهود رحلوا عن إسبانيا، ويحتمل أن يكون ثلث اليهود في أراجون البالغ عددهم تسعة آلاف نسمة قد غادروها. وتوجه معظم يهود أراجون إلى إيطاليا في حين ذهب معظم يهود مملكة كستيليا إلى بلاد أكثر تسامحاً معهم عن إسبانيا مثل نافار والبرتغال. وبمجيء عام ١٤٩٧ توقف اليهود عن الهجرة إلى هذين البلدين؛ نظراً لصدور أوامر جديدة بضرورة اعتناقهم الدين المسيحي نتيجة زواج مانوفيل ملك البرتغال بملكة كاثوليكية، ولهذا السبب توجه كثير من المطرودين من الأندلس بوجه خاص إلى البلاد الواقعة في شمال أفريقيا، فضلاً عن أن بعض اليهود فعلوا نفس الشيء نتيجة إرغام البرتغال لهم باعتراف النصرانية عام ١٤٩٧. وأيضاً أغلقت مملكة نافار باب الهجرة إليها عندما طلبت من اليهود فيها عام ١٤٩٨ التحول إلى المسيحية، وبعد مرور فترة طويلة بدأ اليهود ينزحون إلى تركيا. وقد شاهد دييلوماسي في ميناء جنوه وصول هؤلاء التعمساء إلى هذا المرفأ فوصف حالهم قائلاً: «إن العذاب الذي كابده هؤلاء اليهود يحرك المشاعر، فقد بدا عليهم الهرم والهزال حتى إن المرء يحسب أنهم أموات».

ولم يجد اليهود في منفاهم في أفريقيا أية راحة أو سلوى، فقرر الكثيرون منهم العودة إلى كستيليا، فكان اليهود مثل المستجير من الرمضاء بالنار، كذلك فضل الكثير منهم العودة إلى البرتغال، وهكذا تقلص عدد اليهود الذين غادروا إسبانيا والبرتغال بلا رجعة إلى نحو أربعين ألف يهودي.

وفي حين يؤكد بعض الدارسين أن الهدف من طرد اليهود كان الاستيلاء على ممتلكاتهم واثرواتهم، يذهب البعض إلى خلاف هذا ويدللون على سلامة رأيهم بأن اليهود المهاجرين من مالاجا وألميريا خرجوا منها وبحوزتهم مبالغ ضخمة من المال، فضلاً عن أن عدداً منهم تمكن من الخروج بمنقولاتهم الثمينة وجواهرهم، مثل الثرى إسحاق بيردونيل، الذي منحه آخر ملوك المسلمين في غرناطة الحق في اصطحاب ممتلكاته معه، وأيضاً سمحت السلطة الحاكمة للثرى اليهودي أيرافانيل وأسرته بأخذ ثرواتهم معهم، وكذا نجح بعض اليهود في تهريب ثرواتهم عن طريق رشوة الحراس والموظفين. ونستدل على ذلك أيضاً من أن الحكومة قدمت في عام ١٤٩٤ موظفاً في مدينة سيوداد ريال للمحاكمة لأنه كان يتتزع مبالغ باهظة من اليهود للسماح لهم بالعبور إلى البرتغال، ولأنه سمح لبعضهم باصطحاب ذهبهم وفضتهم وبضائعهم المحظورة، والذي لا شك فيه أن المسيحيين الإسبان والبرتغاليين الذين استدانوا من اليهود استفادوا من التخلص من اليهود في التهرب من دفع ما عليهم. وعلى أية حال يؤكد بعض المؤرخين أن السبب الجوهرى

الذى حدا بإسبانيا إلى طرد اليهود من أراضيها كان في الأساس سبباً دينياً أكثر من كونه سبباً اقتصادياً، وكانت أملاك العائدين إلى الأراضى الإسبانية والمتحولين إلى النصرانية ترد إليهم. ويذكر التاريخ أن السلطة البرتغالية أرغمت موظفًا في مدينة سيوداد ريال على رد بعض المنازل إلى صاحبها اليهودى المتحول إلى المسيحية لأنه استغل فرصة طرده واشتراها منه بأبخس الأثمان. في عام ١٤٩٤ عاد إلى مدريد عدد من الأطباء اليهود المطرودين الذين تحولوا فيما بعد إلى المسيحية، فرحب بهم مجلس المدينة متمنياً قدوم المزيد منهم نظرًا لتمييز اليهود في مجال الطب.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هدف الملك فرديناند والملكة إيزابيلا من وراء طرد اليهود من إسبانيا لم يكن الخوف من حدوث صدع في العقيدة الكاثوليكية.. وهم يؤكدون أن هذين الملكين لم يكونا على الصعيد الشخصي يحملان أية عداوة للسامية أو تحركهما الدوافع العنصرية، أكثر من هذا أنهما لم يحملتا أية عداوة شخصية ضد المسلمين في إسبانيا على الرغم من أنهم كانوا أكثر عددًا وأشد خطرًا من الأقليات اليهودية، بل إن دافعها كان في جوهره دافعًا دينيًا بحثًا بدليل أن هذين الملكين أصدرتا أمرهما إلى شعب جويبيكا وشعب أوسما بعدم معايرة اليهود المتحولين إلى النصرانية بأنهم مخادعون أو منافقون. وبعد وفاة الملك فرديناند لم يخف الكثير من موظفيه وبعض أخبار بنى إسرائيل انتقادهم له بسبب طرده لليهود.

ويقول جيرونيمو دي زوريتا المفتش في محاكم التفتيش الذى تولى تدوين حياة الملك فرديناند، إن الكثيرين كانوا يعيبون على الملك طرده لليهود. وهذا ما أكده مؤرخ محاكم التفتيش لويس دي بارامو بعض مضى قرن كامل على عملية الطرد، والجدير بالذكر أن موقف الملك فرديناند بعد عام ١٤٩٢ تأرجح بين الحظر والتسامح، كذلك تأرجح موقف ملوك إسبانيا من اليهود، ففي حين صدرت مراسيم بحظر طقوس العبادة اليهودية في إسبانيا ومستعمراتها، نجد أن الملوك الإسبان يسعون إلى التخفيف من وطأة هذا الحظر في أوائل القرن السادس عشر.. وفي ميلانو الإيطالية التى كانت تحت سيطرة الحكم الإسبانى لم يفرض الحظر فيها على العبادة اليهودية إلا بعد مضى قرن بأكمله على عام ١٤٩٢، وأيضًا مضى قرنان كاملان حتى فرض الحظر على الدين اليهودى في أوران الخاضعة للحكم الإسبانى في شمال أفريقيا، ومعنى هذا أن حظر الإسبان للدين اليهودى لم يكن عملاً منظّمًا أو شاملًا، وأن السلطات الإسبانية كانت تسمح بممارسة شعائر الدين اليهودى لفترات طويلة في أماكن متناثرة رغم فرض حظر عليها في بعض المناطق الأخرى.

كانت إيزابيلا امرأة فاضلة تؤمن إيماناً عميقاً بالعقيدة الكاثوليكية، فضلاً عن شدة إحساسها بالمسئولية والواجب، ومن ثم لم يكن من العسير إقناعها بضرورة إنشاء محاكم التفتيش كوسيلة لدعم كيان الدولة.

ولدت إيزابيلا في ٢٢ أبريل عام ١٤٥١ في مدينة مادريجال دي لاس أتلاس توريس في جويمور بالفوضى والاضطراب. فقد اتسم حكم والدها الملك جون الثاني بالضعف لدرجة أن الفوضى ضربت أطنابها في منطقة كستيلا؛ حيث كان وجهاءها يتصرفون بلا رابط أو ضابط وبدون أدنى إحساس بالمسئولية، وتفشت السرقة والاعتصاب على نحو هدد الشعب الفقير في عرضه وماله القليل؛ مما حدا بالشرفاء إلى التفكير في أنجح وسيلة لاستتباب الأمن وحفظ القانون في البلاد. وللأسف كان الملك جون الثاني غافلاً لاهياً ولعبة في يد نبيل غير شرعى اسمه دي لونا ينحدر من أرفع عائلات أراجون وأسماها مقاماً. وكان هذا النبيل جذاباً للغاية يحب الموسيقى ويقرض الشعر مما راق في عين الملك جون الثاني، فقام بتعيينه سيد سان جيمس الأعظم وحارس كستيلا، وكان طموح دي لونا ربيب الملك عظيمين، فاستغل ثقة الملك غير المحدودة فيه فاستولى على جانب كبير من ثروته وسلطاته، الأمر الذى أثار ضغينة بقية الأشراف ضده، حتى هنرى ابن الملك جون الثاني لم يتردد في أن يقف في وجه أبيه نتيجة لذلك، وبسبب مظالم دي لونا تألب وجهاء كستيلا عليه وعلقوه على جبل المشنقة.

اتخذ الملك جون الثاني لنفسه زوجة من إقليم أراجون تدعى ماريا وأنجب منها هنرى الذى صار ولياً للعهد، ثم تزوج للمرة الثانية من الأميرة إيزابيلا حفيدة ملك البرتغال، ثم أنجب الملك جون الثاني من زوجته الثانية ولداً يدعى ألفونسو وابنة تدعى إيزابيلا. وعلى سرير الموت رجا الملك جون الثاني ابنه وولى عهده هنرى أن يرعى أخته إيزابيلا وأخاه ألفونسو غير الشقيق. وانكبت أم إيزابيلا على تربيتها وقامت بتنشئتها نشأة قوامها التقوى والورع.

وفي حين كانت إيزابيلا فتاة تقيّة وورعة كان أخوها هنرى، رغم ما أشيع عنه من عجز جنسى، شديد التهتك.

لقد وضع شعب كستيلا كل أمله في هنرى؛ لأنه تمرد على والده الفاسد ظناً منه أن الابن أفضل من أبيه، ولكن اتضح له أن هنرى أسوأ من والده. فقد كرس الابن حياته للاستمتاع بأطياب الحياة الحسية دون أن يمتلك إحساس والده المرهف بالموسيقى والشعر. كان هنرى يحمل المقت الشديد لمسلمى إسبانيا القادمين من مراكش وشمال أفريقيا، غير أن حملاته عليهم استنفذت الكثير من

موارد الدولة. وحتى يتمتع هنرى بشعبية عريضة اتبع سياسة إغداق العطايا والمدايا على أصدقائه وأعدائه على حد سواء، فهو يسعى بهداياه إلى أن يخطب ود أعدائه ويكسر شوكتهم، فضلاً عن أنه كان يتيه حُباً بمظاهر الأبهة والعظمة في الحياة العسكرية أكثر من حبه للقتال الفعلى، الأمر الذى أدى إلى عجزه عن الانتصار على جيوش المسلمين الذين كانوا يسخرون منه ويحتقرونه، حتى الجيش المسيحى الذى جنده لمحاربة المسلمين اتسم بالضعف والهزال، وبسبب عربدته ونزواته ومغامراته الجنسية منذ فجر شبابه، هجر زوجته بلانش من مملكة أراجون بعد زواج دام اثنى عشر عامًا. وبعد طلاقه من امرأته الأولى تزوج هذا الملك العرييد من أخت ألفونسو الخامس ملك البرتغال، ولكن هذا الزواج سرعان ما انتهى بفضيحة؛ حيث إن زوجته الثانية وقعت في غرام أحد نبلاء البلاط اسمه بلتران دى لاكويفا، وأيضًا وقع زوجها في غرام إحدى وصيفاتها، وأخذت هذه العشيقة تنازع الملكة في سلطاتها، الأمر الذى أدى إلى عراكهما وشجارهما. والغريب أن هذا الجوار المشحون بالمباذل والمفاسد لم يؤثر في الفتاة إيزابيلا مطلقًا فقد ظلت تعيش مع أخيها ألفونسو في هدوء وسكينة وفي طهر وصفاء ونقاء يكرسان وقتها للصلاة والتعبد.

كان من الطبيعى أن يتولى أخوها ألفونسو أو تتولى هى أريكة الحكم بعد وفاة أخيها هنرى الذى لم ينجب ذرية، غير أن المفاجأة حدثت عندما وجدت زوجة هنرى الثانى نفسها حبلى، وسرت إشاعة في البلاط أن الملكة لم تحمل من زوجها بل حملت من عشيقها بلتران دى لاكويفا. وأنجبت الملكة فتاة تدعى لابلترانيجا أصبحت ولية العرش في مملكة كستيليا، ولم يسكت النبلاء والوجهاء على هذه الفضيحة فهم يرفضون أن تولى عليهم فتاة مشكوك في نسبها، وخشى الملك هنرى من تمرد البلاط عليه وتولية أخيه ألفونسو أو أخته إيزابيلا على عرش كستيليا، ولهذا قام هنرى باستدعائهما ليعيشا معه تحت سقف واحد درءًا لخطرهما حتى يكونا تحت نظره ويتمكن من مراقبتهما، ولكن هنرى لم يتمكن من تهدئة نائرة النبلاء عليه بعد أن اقترح أن يقوم أخوه ألفونسو بالزواج فيما بعد من ابنته بلترانيجا. وكان أشد الناس ثورة عليه جوان باتشيكو ماركيز فيلينا، الذى خشى من أن تؤدى سياسة هنرى إلى تقلص نفوذه وحظوته في البلاط. ولهذا عقد هذا الماركيز العزم على عزل هنرى وتعيين ألفونسو خلفًا له، وقام الماركيز فيلينا عام ١٤٦٥ بإحضار ألفونسو إلى حقل قريب من مدينة أفيلا وإقامة منصة هناك، ووضع على المنصة دمية تشبه الملك هنرى وقد أحاطت به كل مظاهر الأبهة والعظمة والجلال، وجاء رئيس أساقفة توليدو (طليطلة) واسمه ألفونسو كارليو (عم الماركيز فيلينا والمناصر له) وصعد إلى المنصة وأزاح التاج الملكى عن الدمية، ثم قام الماركيز فيلينا بتجريدتها من كافة دلائل العظمة وقذف بها إلى جمهور الحاضرين

الذين أسعدهم تقاذفها وتمرغها في التراب، وطلب من الصبي ألفونسو البالغ من العمر أحد عشر عامًا أن يعتلي المنصة ويجلس مكان الدمية التي تمثل الملك هنرى، ثم وضع التاج الملكى على رأسه وأدى إليه الواقفون فروض الطاعة والولاء فشاعت البهجة بين الجمهور الذى صاح مرحبًا بالملك الجديد.

ورغم هذا فإن هنرى لم يتحرك ضد المناوئين له بسبب ضعفه وتحاذله وإيثاره للسلامة، بالعكس سعى هنرى إلى أن يكسب عدوه فيلينا إلى جانبه عن طريق رشوته وإغداق الهدايا عليه. ورغبة في استرضاء عدوه عرض هنرى على أختى فيلينا واسمه دون بدرو جيرون أن يتزوج من أخته إيزابيلا التى كانت فى السادسة عشرة من عمرها، ولكن إيزابيلا رفضت هذا الزواج بكل إباء وشمم. كانت إيزابيلا رغم تدينها الشديد لا تخلو من المطامع الدنيوية والسياسية وعلى رأسها رغبتها فى توحيد مملكة كستيليا مع مملكة أراجون؛ وتعللت فى رفضها الزواج من دون بدرو بضرورة استطلاع رأى أشرف كستيليا ونبلائها فى هذا الأمر فقد كانت إيزابيلا تعلم جيدًا حياة الفسق والمجون التى كان دون بدرو الذى يكبرها بعدة أعوام غارقًا لأذنيه فيها. ونظرًا لإدراكها بالعجز أمام أخيها هنرى فقد آثرت الانسحاب من حياة البلاط لتتوارى كسيرة النفس عميقة الحزن فى جناحها بالقصر، تواصل الصلاة وهى راكعة على ركبتها كى يزيح عنها الله هذه الغمة. وازورت عن الطعام والنوم وطلبت من وصيفتها بيتويز دى بوباديللا أن تغمد خنجرًا فى قلب الفاسق دون بدرو إذا حاول الاقتراب منها، ولكن هنرى لم يكتثر بتوسلاتها وبدا من المؤكد أن العريس دون بدرو سوف يظفر بها، ولكن شيئًا لم يكن فى الحسبان وقع، فقد سقط العريس مريضًا ولفظ أنفاسه الأخيرة فى غضون أربعة أيام عندما داهمه مرض غامض ومفاجئ أثناء سفره إلى مدريد، حيث من المزمع أن تتم إجراءات الزواج، ومن المحتمل أن يكون أحد المتعاطفين مع إيزابيلا قد دس له السم دون أن تعلم إيزابيلا بذلك. وعندما تحطمت طموحات عائلة دون بدرو فى التقرب من العائلة الملكية واعتلاء سدة الحكم، نشبت حرب أهلية طاحنة بينها وبين أعوان الملك هنرى، وانخرط الشاب ألفونسو أخو إيزابيلا فى هذه الحرب، ولكنه فى يوم ٥ يوليه ١٤٦٨ وُجد ميتًا على فراشه، ويحتمل أنه مات مسمومًا أو بسبب الطاعون المنتشر فى إسبانيا آنذاك. وبوفاته وبسبب الشك فى شرعية نسب بلترانيجا إلى أبيها الملك هنرى، أصبحت إيزابيلا هى الوحيدة المؤهلة لاعتلاء عرش كستيليا.

كانت إيزابيلا حينذاك فى نحو السابعة عشرة من عمرها وتتسم بالجدية التى لا تتناسب مع صغر سنها، كما كانت مدركة للأخطار المحدقة بها وببلادها، ولهذا آثرت أن تعود إلى حياة الدير

التي كانت تعيش فيه في أفبلا، ولم تغادره إلا بعد أن هدأت حدة الجو المشحون بالنزاع والتوتر. ورغم صغر سنها كما أسلفنا فقد كانت على جانب عظيم من الحكمة والحكمة التي دفعتها إلى القول مرارًا وتكرارًا أنه لا يحق لها اعتلاء العرش ما دام شقيقها الملك على قيد الحياة، وأخيرًا زارها في صومعتها في الدير رئيس أساقفة توليدو (طليطلة)، الذي صرح بأنه يعتبرها ملكة كستبلا بعد وفاة أخيها ألفونسو، غير أن الفتاة عادت لتؤكد أن أخيها هو الأجدد بالعرش؛ لأنه لا يزال حيًّا يرزق، ولكنها بسبب شدة تدينها تطلعت إلى تطهير البلاد من الفسق والفجور وإلى أن يسودها السلام والوئام.

ثم قام هنرى بتطليق زوجته البرتغالية الماجنة وأعادها إلى بلادها، وهكذا أصبحت إزابيلا وريثة عرش كستبلا المحتملة بعد وفاة شقيقها هنرى الذي تعهد أخيرًا بعدم إجبارها على الزواج بدون موافقتها، غير أنه طلب منها ألا تتزوج بدون أخذ رأيه، وكثر حُطابها فتقدم إلى الزواج منها أخو ملك إنجلترا إدوارد الرابع، ودوق جلوستر الذي صار فيها بعد الملك ريتشارد الثالث، ولكن إزابيلا كانت كما ذكرنا تحلم بتوحيد مملكتي كاستيل وأراجون، الأمر الذي جعلها ترحب بالزواج من فرديناند أمير أراجون، وشاءت الأقدار أن تتحقق رغبتها، وبعد زواجها نجح الاثنان في طرد المسلمين من آخر معاقلهم في إسبانيا.

والجدير بالذكر أن رحلة كريستوفر كولبوس لاكتشاف القارة الأمريكية تمت تحت رعاية الملكة إزابيلا، والجدير بالذكر أيضًا أن فرص فرديناند في اعتلاء سدة الحكم في بلده أراجون كانت ضئيلة؛ حيث إنه كان له شقيق وشقيقتان يكبرونه في السن، هم كارلوس وبلانش وليونورا، ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يؤول الحكم إليه. وبالنظر إلى أن زواج فرديناند من إزابيلا تعارض مع مطامع فيلينا الذي رفضت إزابيلا الاقتران به، فإنه سعى قدر استطاعته إلى وضع العراقيل أمام زواجهما، كما أنه أعلن عن تأييده لابنة هنرى لا بلترانيجا المشكوك في نسبها، غير أن الشعب كان شديد التعاطف مع إزابيلا وأظهر تحمسًا كبيرًا لزواجها من فرديناند. وكان من حسن حظ إزابيلا أن أخيها هنرى اضطر إلى السفر إلى جنوب إسبانيا لخوض الحرب ضد أعدائه هناك، وأيضًا اضطر فيلينا إلى السفر معه إلى الجنوب، الأمر الذي أتاح لها فرصة الترحال من أوكافيا إلى مادريجال للتعجيل بإتمام إجراءات زواجها من فرديناند، غير أن أخيها هنرى وفيلينا الموتور لم يتركاها لحالها فقد تعقباها إلى مادريجال وزرعا الجواسيس من حولها، بل إن فيلينا أرسل قواته للقبض على إزابيلا وإعادتها إليه بالقوة، ولكن قائد القوات البحرية في كستبلا وجد فرديناند في الوقت نفسه رحب بإتمام هذا الزواج على وجه السرعة، وكذلك كان رئيس أساقفة طليطلة موافقًا على هذا الزواج.

ولما نجا إلى علم هذين الرجلين أن قوات فيلينا في طريقها للقبض على إيزابيلا سارعا بالسفر سراً لتحذيرها من الخطر الذي يحيق بها، وطلبا منها مغادرة المكان على الفور، وحين وصلت القوات المعادية إلى القصر كانت إيزابيلا قد لاذت بالفرار منه.

وأخيراً سافر فرديناند البالغ من العمر آنذاك ثمانية عشر عاماً إلى مملكة كستيليا في الخفاء، حيث عقد زفافه على إيزابيلا البالغة من العمر تسعة عشر ربيعاً، وكان العروسان خالي الوفاض فاقترضا مآلاً من المعارف والأصدقاء لإقامة حفل الزفاف، وكانت الزوجة أشد ما تكون سعادة بزوجها، فقد كان وسيماً يفيض بالحيوية والشباب. وتم الزواج في ١٩ أكتوبر ١٤٦٩ في قصر يملكه جون دي فيفرو في بلد الوليد (فالادوليد)؛ حيث كانت إيزابيلا تقيم، وبمجرد الانتهاء من مراسم الزواج قام العروسان بإبلاغ هنري بالنبأ فامتنع عن تقديم التهنئة إليهما. وحتى يضع هنري العراقيل أمام أخته إيزابيلا في اعتلاء عرش كستيليا أعلن أن ابنته بلترانيجا ابنة شرعية وليس هناك غبار على نسبها، وكذلك أكدت أمها البرتغالية صحة نسبها، وأيضاً لجأ هنري إلى المناورة على تزويج ابنته المشكوك في نسبها إلى أخى ملك فرنسا لويس الحادى عشر هادفاً من وراء ذلك كسب تأييد الفرنسيين لابنته عندما تصير ملكة على كستيليا بعد إزاحة أخته من الطريق. ورغم كل هذه المؤامرات التى حاكها هنري ضد أخته إيزابيلا، فقد ظلت على عهداها هادئة ومتناسكة ووقورة تتصرف بحكمة وورع، الأمر الذى زاد من شعبيتها بين عامة الناس. وعاش الزوجان فرديناند وإيزابيلا في شطف وعوز واعتمداً في معاشهما على الاقتراض من الأحباء والأصدقاء. أما الحياة في كستيليا فكانت تنضح بالفساد واختفى منها الأمان وشاع القتل والسرقه والاعتصاب.

وفي ديسمبر عام ١٤٧٣ تم صلح بين الملك هنري وأخته إيزابيلا، وأقام المآدب لتكريمها، ولكن سرعان ما داهمه المرض فعزا مرضه إلى محاولة من جانب أعوان أخته إيزابيلا لدس السم له، ولهذا قلب الأخ لأخته ظهر المجن وقرر القبض عليها، ولكن المنية لم تمهله فقد توفى في ديسمبر عام ١٤٧٤، وأيضاً مات عدوها اللدود فيلينا مما زاد من تحسن ظروفها. وكانت مملكة كستيليا في أسوأ حالاتها بسبب تمزقها نتيجة النزاع والصراع والحروب الأهلية، فضلاً عن أنها على شفا الإفلاس إن لم تكن قد أفلست بالفعل.

وبموت الملك هنري أصبح هناك وريثتان محتملتان، ابنته المشكوك في نسبها إليه، وأخته إيزابيلا المحبوبة من الشعب والمعروفة بشدة تقواها، ولكن أريكة الملك كانت في نهاية المطاف من نصيب إيزابيلا، ولما علم زوجها فرديناند بأمر اعتلائها العرش جاء من أراجون على وجه السرعة كى يلحق بها، وتناقش الزوجان في أمر الحكم، فعبر فرديناند عن رغبته في أن تكون مقاليد

الأمر في يده، ولكن زوجته أصرت على أن تكون الحاكمة لأن هذا حقها المشروع، وبعد أن احتدم النقاش طويلاً وافق زوجها على أن تكون الحاكمة الفعلية لمملكة كستيلا وألا يجد غضاضة في أن يستمد سلطاته منها، فهما متحابان ومصلحتهما المشتركة تقتضى منها رعاية وليدتها إيزابيلا التي سميت باسم والدتها التي ولدتها في مدينة ديونياس عام ١٤٧٠، واستجاب فرديناند لصوت العقل والحكمة فوافق على ذلك.

لم يكن الطريق أمام الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند سهلاً أو ميسوراً، فقد اعترض على ملكهما المؤيدون لابنة هنرى بلترانيجا المشكوك في نسبها، وكان ألد أعداء إيزابيلا والمناوئين لها رجل عسكري محنك هو الماركيز فيلينا ابن عدوها اللدود، وأيضاً غدر رئيس أساقفة طليطلة بإيزابيلا عندما أدرك أنها لن تعطيه الخطوة التي يطمع فيها، ولكن أكثر أعداء إيزابيلا عنفاً وضراوة كان ألفونسو الخامس ملك البرتغال الذي كان يطمع في أن يضم كستيلا إلى أراضيه، فضلاً عن أنه لم ينس قط إهانة إيزابيلا له عندما رفضت أن تتزوجه، ورغبة منه في الانتقام منها ساند ألفونسو الخامس غريمتها بلترانيجا التي خطط للزواج منها والزحف بقواته للاستيلاء على مملكة كستيلا، وبالفعل شن ألفونسو الخامس هجوماً عسكرياً على إيزابيلا وفرديناند وتمكن من دخول كستيلا في مايو عام ١٤٨٥ ليجد ترحيباً من فيلينا عدو إيزابيلا اللدود. وتقدم ملك البرتغال الظافر لخطبة بلترانيجا واستخدم ألفونسو الخامس نفوذه لدى البابا كي يوافق على هذا الزواج، وتم الإعلان بأنه وعروسه هما حاكما كستيلا الشرعيان، واستمر هذا الصراع المسلح لمدة أربعة أعوام، ولكنه انتهى بانتصار إيزابيلا وفرديناند على أعدائهما الذين أرادوا إزاحتها من العرش في معركة حاسمة بالقرب من مدينة تورو، وبعد هزيمته وانكساره أعلن ألفونسو أنه نادم وأنه سيكفر عن ذنوبه بالترحال إلى الأراضي المقدسة، كما أنه أعلن تنازله للعرش لصالح ابنه چون، ولكن ما لبث أن تراجع عن أقواله وعن تنازله عن العرش وقام بحشد قواته مرة أخرى لمهاجمة كستيلا، ولكن خالة إيزابيلا التي كانت زوجة أخى ألفونسو توسطت حتى استطاعت إقناع المتنازعين بعقد معاهدة صلح بين الأطراف المتنازعة، غير أن إيزابيلا وزوجها فرديناند اشترطا على ألفونسو التعهد بعدم الاعتداء على كستيلا في المستقبل، وفسخ خطبته بلترانيجا، وأخذ تعهد عليها بعدم المطالبة بعرش كستيلا في المستقبل.

ومات والد فرديناند فورث الابن عنه حكم مملكة أراجون، وهكذا توحدت مملكة كستيلا التي تحكمها إيزابيلا ومملكة أراجون التي آلت بالوراثة إلى فرديناند، وقرر الاثنان أن يكرسا جهودهما لإعادة النظام إلى بلادهما التي دمرتها الحروب. وحتى يستتب الأمن في البلاد أنشأت

إيزابيلا جهازًا عسكريًا أطلقت عليه اسم «الأخوة المقدسة» هدفه حماية أمن المواطنين والحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم، والتصدي لجرائم قطع الطريق والسرقة والاعتصاب وغيرها من الجرائم. وفي بادئ الأمر فرضت إيزابيلا ضرائب على أصحاب البيوت للصراف على هذه القوة العسكرية التي تحولت إلى جهاز شرطة يصون أمن المواطنين، وطبقت الآفاق سمعة إيزابيلا الحسنة فأطلق عليها شعبها اسم الملكة الطيبة.

هذه هي قصة إيزابيلا التقية الورعة التي نشأ في عهدها أفضع وأبشع نظام عرفته الإنسانية في القرون الوسطى والمعروف باسم «محاكم التفتيش»، والجدير بالذكر أنه سبق لهذه السيدة الفاضلة أنها أقسمت في شبابها لكاهن اعترافها، توماس دى توركويادا، أنها سوف تنذر حياتها لاجتثاث الهرطقة من جذورها من أجل مجد الله ومجد الديانة الكاثوليكية، ولم يمض على اعتلاء إيزابيلا العرش وقت حتى جاءها من يذكرها بالعهد الذي قطعت على نفسها في شبابها.

فكرة إعدام المهرطقين ليست جديدة على الدين المسيحي، ففي عام ٣٨٥ قام الإمبراطور المسيحي الورع ماكسيموس بتعذيب وإعدام المهرطق برسليان وعدد من أتباعه. ثم تبعه الإمبراطور جستينيان (٤٨٣ - ٥٦٢)؛ ليفعل نفس الشيء ويصدر مجموعة من القوانين الخاصة بإعدام أنواع معينة من المهرطقين، وفي القرن الثالث عشر انتشرت في جنوب فرنسا حركة مهرطقة قوية تعرف بـ «الأليجنسيين» شنت الكنيسة الكاثوليكية الحرب ضدها في الفترة من ١٢٠٩ حتى ١٢٤٤ بغية القضاء عليها، ولكنها لم تنجح في استئصال شأفتها، فقد اختبأت هذه الحركة المهرطقة تحت الأرض تجنبًا لحسف الكنيسة واضطهادها. ومن ثم نشأت فكرة إقامة جهاز متخصص ومؤهل لاستئصال الهرطقة.

ولكن من الخطأ أن نظن أن الكنيسة قبل إنشاء محاكم التفتيش لم تكن لديها وسائلها لمحاربة الهرطقة، فقد كانت هناك في كل أسقفية محكمة كنسية روحية للتصدي لأيّة هرطقة قد تنشأ. ورغم أن الأساقفة أئيط بهم تعقب الهرطقات وملاحقة المهرطقين، فإنهم كانوا يفعلون هذا فيما ندر، وبدا من الواضح أن تعقب المهرطقين بحاجة إلى إنشاء جهاز مكون من أناس مؤهلين للاضطلاع بهذه المهمة، ولهذا السبب أنشأ البابا في روما بالتدريج جهازًا يعرف باسم «محاكم التفتيش». ويرجع الفضل في إنشاء هذا الجهاز إلى طائفتي الرهبان المعروفتين باسمي الدومينيكان والفرنسيسكان، وأصبح من الواضح أن هذه المحاكم أكثر كفاءة في عملها من المحاكم الروحية أو المحاكم الأسقفية

العادية.. وفي نهاية القرن الثالث عشر استطاعت محاكم التفتيش في أوروبا أن تصبح في منتهى الكفاءة والاعتدال من حيث قدرتها على ملاحقة المهترطين وإنزال أشد العقاب بهم، وكانت محاكم التفتيش تعمل باستقلال عن المحاكم الروحية، ورغم أن الكنيسة عارضت استخدام التعذيب، فإن بابا روما أصدر في عام ١٢٥٢ مرسومًا يسمح رسميًا باستخدامه. والجدير بالذكر أن محاكم التفتيش انتشرت في جميع أرجاء القارة الأوروبية باستثناء بلدين هما ألمانيا وإنجلترا. ففي إنجلترا مثلاً تكفلت التشريعات وتكفل القانون العام الصادر عن البرلمان بمهمة إحراق المهترطين، ومعنى ذلك أن صلاحية قوة محاكم التفتيش اختلفت من دولة أوروبية إلى دولة أخرى، ولكن من المؤكد أن محاكم التفتيش الإسبانية كانت أكثرها فظاعة وأشدّها بثًا للرب و الترويع.

كان بدرو الثاني ملك أراجون أول من استن تشريعًا عام ١١٩٧ يقضى بحرق المهترطين، وفي أوائل القرن الثالث عشر اشتهر جايم الأول بإنزال العقوبات المغلظة عليهم. ففي عهده تأسست في مملكة أراجون أول محكمة تفتيش، ولكن نشاطها لم يتضح للعيان إلا في القرن الرابع عشر عندما تحركت لمعاقبة بعض الرهبان الفرنسيين المنشقين على السلطة الباباوية، فضلًا عن معاقبة اليهود والمسلمين الذين تظاهروا بالتحول إلى الدين المسيحي.

ولكن عندما اعتلى كليمنت السادس كرسى الباباوية عام ١٣٤٢ اتخذ موقفًا في صالح اليهود حين رأى ألمانيا تحيرهم بين الموت واعتناق العقيدة المسيحية. فقد قام بفرض الحرمان الكنسي على المعتدين على اليهود، كما أن رودريجو بورجيا، الذى تولى كرسى الباباوية في عام ١٤٩٢ حتى ١٥٠٣ رحب في روما باستقبال اليهود المطرودين من إسبانيا ووفر لهم عيشة آمنة وسالمة، ولم يكن ترحيبه بهم راجعًا إلى العطف عليهم بل طمعًا في الاستفادة من ثروتهم.

وفي إسبانيا ألقى رجل الدين المسيحي فرانت مارتينيز في عقدى السبعينيات والثمانينيات في القرن الرابع عشر سلسلة من الخطب النارية التى أشعلت لهيب الكراهية ضد اليهود، الأمر الذى أدى إلى تعرضهم للمجازر فى كل من كاتالونيا وأراجون وكستيليا، ولكن رئيس أساقفة إشبيلية اعترض على تحريضه ولامه لومًا شديدًا وحذره من مغبة هذا التحريض؛ لأنه كان يدرك الفوائد الناجمة عن وجود اليهود، ولكن مارتينيز لم يكثر مطلقًا لتحذيره أو لتقريع البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩ - ١٤٠٤)، بل ظل سادرًا فى تهيج الشعب الإشباني ضد اليهود. فقام رئيس أساقفة إشبيلية بتقديمه لمحكمة كنسية (وهى محكمة دينية تختلف عن محاكم التفتيش) للتحقيق معه، غير أن المصادفة وحدها شاءت أن يموت رئيس أساقفة إشبيلية، فاعتبر الشعب موته أمارة على خطاه وصواب غريمه مارتينيز، الذى واصل نفث سمومه ضد اليهود، الأمر الذى أثار الغوغاء عليهم

وجعلهم يقومون بسلبهم ونهبهم والاعتداء على حياتهم وممتلكاتهم. وقتل في إشبيلية وحدها أربعة آلاف يهودى، ويقدر عدد الإسبان الذين راحوا ضحية أعمال الشغب بخمسين ألف يهودى.

وفي عام ١٤٦٠ نشر راهب فرنسيسكاني يدعى ألونسو دى سبينا وثيقة لفت فيها الأنظار إلى الشرور التي يقترفها اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية. وشن دى سبينا هجوماً ضارياً عليهم، رغم أنه كان هو نفسه واحداً من اليهود المتحولين إلى المسيحية، ولعله أراد بذلك أن يدرأ هجوم المسيحيين عليه. والجدير بالذكر أن هذا الراهب دافع بقوة عن ضرورة إنشاء محكمة تفتيش في مملكة كستيليا لمحاكمة اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية في حين أنهم يضمرون الولاء للدين اليهودى في قرارة قلوبهم، وبادر الرهبان الفرنسيون بتأييده، والغريب أن مملكة كستيليا لم تكن البادئة بإنشاء محكمة التفتيش رغم الأمر الذى أصدره البابا سكستوس الرابع ١٤٧٤ بإقامتها.

ولعل السبب في هذا يرجع إلى ضآلة عدد المهرطقين في كستيليا، مما دفع الأساقفة إلى الاعتقاد بأنه بالإمكان وضع حد للمهرطقة فيها دون الحاجة إلى إنشاء محاكم تفتيش، وعقدت ممالك كتالونيا وبلنسية وأراجون ونافار اجتماعاً لدراسة الأمر الباباوى بإنشاء محكمة تفتيش في مملكة كستيليا بحجة أن تظاهر اليهود باعتناق المسيحية أشد خطراً على الدين المسيحى من المهرطقة، فاليهود في رأيه هم الذين ينشرون الطاعون ويسمون الآبار ويخطفون الأطفال المسيحيين ويصلبونهم مثلما حدث في بلد الوليد وزامورا. وتنقل ألونسو دى سبينا بين أرجاء إسبانيا لإلقاء خطبه الملتهبة ضد اليهود المتحولين إلى النصرانية محذراً الناس من خطرهم، فضلاً عما سطره من كتابات تحريضية في هذا الشأن. وألح دى سبينا على الحاجة إلى إنشاء محكمة تفتيش في كستيليا، ومن الناحية الرسمية لم تكن محكمة التفتيش مختصة بالنظر في شؤون اليهود، اللهم إلا إذا تحولوا إلى الدين المسيحى، فواجب محاكم التفتيش الأول والأخير هو محاربة المهرطقة وليس محاربة الدين اليهودى.

ورغم هذا الإلحاح على إنشاء محكمة تفتيش في كستيليا فإن إيزابيلا ملكة كستيليا كانت لا ترغب في ذلك؛ لأنها لا تريد الخضوع إلى السلطة الباباوية في روما.

والجدير بالذكر أن علاقتها بابابا روما آنذاك سكستوس الرابع اتسمت بالتوتر والخلافات المستمرة، ولأن هذا البابا اتسم بالمحسوبية، فإنه كثيراً ما تجاهل رغبات الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند في تعيين مرشحيها لشغل بعض الوظائف الدينية الشاغرة في كونيكا وسرقسطة وتاراجونا، وعين أقاربه وأصدقاءه. وعبثاً طلب فرديناند وإيزابيلا من البابا إلغاء تعييناته، فقد رفض قائلاً: «إن

الله منحه هذه السلطة وليس لأحد أن يعترض عليها». وبلغ الغضب بالملك والملكة حدًا جعلها يستدعيان سفيرهما في القاتيكان ويأمران رعاياهما الإسبان بمغادرة روما، غير أن البابا لم يرضخ لطلبات الملكين إلا بعد أن هدداه بالدعوة إلى عقد مجمع لمناقشة حدود السلطة الباباوية وهو ما أراد البابا سكستوس الرابع تفاديه بسبب غرقه في المحسوية والفساد. وبطبيعة الحال كان لهذا البابا أعوان في كستيليا، وخشيت إيزابيلا من نفوذ القاتيكان على أتباعه من رجال الكنيسة في كستيليا، الأمر الذي جعلها تتصرف بحذر وتحسس طريقها. ورغم اعتراضه على إقامة محاكم تفتيش في مملكة كستيليا خوفاً من تغلغل نفوذ البابا في شئونها، فقد طلب راهب إشبيلية الدومينيكانى البارز ألويسو دى أوجيدا مقابلة الملكة ورجاها أن تضع حدًا لانتشار الممارسات اليهودية بين اليهود المتحولين إلى المسيحية قائلاً إن السبيل إلى تحقيق ذلك هو إقامة محكمة تفتيش.

ولم يبد على الملكة الافتناع بوجهة نظره، فقد أقرمت باليهود المتحولين إلى النصرانية وعينت كثيرين منهم في بلاطها، فضلاً عن أنها كانت تعلم سلفاً أن الحسد من اليهود كان في كثير من الأحيان السبب في تحامل المسيحيين عليهم. وأيدها في هذا الموقف المتعاطف مع اليهود المنتصرين دون بدرو جونزاليس دى مندوزا، الذى كان يشغل رتبة كاردينال إسبانيا ورئيس أساقفة إشبيلية. واعترض هذا الرجل على إنشاء محكمة تفتيش في كستيليا، ونصح الملكة إيزابيلا بعدم الموافقة عليها، وبالفعل استجابت إيزابيلا لنصيحته وأعرضت عن نصيحة أوجيدا. وحدث أن وصل إلى إسبانيا في ذلك الوقت كبير المحققين في محكمة تفتيش صقلية واسمه فيليپو دى باوبرى، الذى انتصر لرأى أوجيدا الداعى لإنشاء محكمة تفتيش في كستيليا، ولكن بات من الواضح للرجلين أنها سوف يفشلان في إقناع إيزابيلا بوجهة نظرهما، ومن ثم صمما على التوجه إلى الملك فرديناند لمحاولة التأثير عليه عن طريق التلميح إلى استحواذه على ثروات اليهود. ورغم شدة ورعها فإن إيزابيلا رفضت تدخل زوجها في شئون مملكتها، ولهذا اكتفت باستدعاء رئيس أساقفة إشبيلية وأمرته بمراقبة تصرفات اليهود المتحولين إلى النصرانية ومنعهم من ممارسة شعائر دينهم الأصيل. واستشاط المؤيدون لإنشاء محكمة تفتيش في كستيليا غضباً لإدراكهم تساهل رئيس أساقفة إشبيلية وتراخيه، غير أن الرجل سعى جاهداً للحيلولة دون ممارسة اليهود المنتصرين طقوس دينهم القديم، واعتبرت إيزابيلا أنها قد أدت بذلك واجبها نحو دينها وكنيستها.

غير أن حادثة تافهة جعلتها تغير رأبها الراض ل فكرة إنشاء محكمة تفتيش في كستيليا، وتتلخص هذه الحادثة العابرة في أن نبيلاً شاباً مسيحياً من عائلة جوزمان العريقة اتخذ فتاة يهودية من عائلة تحولت إلى المسيحية عشيقته له، واعتاد هذا الشاب أن يزور عشيقته في حجرتها دون علم

أهلها، وفي إحدى زيارته لها في ١٨ مارس ١٤٧٨ إبان أسبوع الآلام المقدس الموافق عشية عيد الفصح عند اليهود، وبينما الشاب يواقع الفتاة، إذا به يسمع جلبة كبيرة وأناسا كثيرين يروحون ويجيئون أسفل الحجره.. وخشيت الفتاة أن يفتضح أمرها فحاولت تهريب عشيقها خارج المنزل دون أن يراه أحد، ولكن الفرصة لم تسنح لها فخباته في دولاب، وبينما كان العاشق محتباً سمع والد الفتاة وأصدقاؤه وقد اقتربوا من مخبئه يتحدثون، وفهم من حديثهم أنهم قد تحولوا إلى النصرانية حديثاً، وأنهم في حقيقة الأمر قد اجتمعوا للاحتفال بعيد الفصح اليهودي، وأصاب الرعب الشاب المسيحي عندما اكتشف أن هذه العائلة اليهودية تتظاهر بالمسيحية، وبمجرد أن تمكن الشاب من الهرب من منزل عشيقته، قام على الفور بالتبليغ عنها. وتهلل أوجيدا وفرح وألقى القبض على جميع الحاضرين في منزل العشيقه، فاعترفوا بذنبهم وطلبوا من الكنيسة الصفح والغفران، وكان من حسن حظهم أن محكمة التفتيش لم تكن قد أنشئت بعد في كستيلا وغفرت لهم الكنيسة خطاياهم وعاقبتهم بأداء بعض فروض التوبة.

واغتنم رجل الدين أوجيدا هذه الفرصة السانحة فسافر على الفور إلى قرطبة ليقابل الملك والمملكة، ولكنه طلب مقابلة الراهب توماس دي توركويادا قبل الالتقاء بإيزابيلا وزوجها وروى له قصة العائلة اليهودية التي اعتنقت النصرانية، ولكنها لا تزال تمارس طقوس الدين اليهودي سراً، وذهل توركويادا من هول الصدمة أكثر من اهتمامه بارتكاب الشاب المسيحي لجريمة الزنا، وبلغ انفعاله مبلغاً جعله يرافق أوجيدا عند مقابلة الملك والمملكة، وفي حضرتهما أيد توركويادا مطلب أوجيدا بضرورة إنشاء محكمة تفتيش على وجه السرعة لحماية للكنيسة والعقيدة الكاثوليكية.

ورأى الملك فرديناند أن إنشاء محكمة تفتيش في صالحه حتى وإن أدى ذلك إلى زيادة النفوذ الباباوى في بلاده، وتمكن من إقناع زوجته إيزابيلا بذلك، ومن ثم طلب الاثنان من البابا سكستوس الرابع إنشاء محكمة تفتيش في مملكة كستيلا واستجاب البابا لطلبها في نوفمبر ١٤٧٨، ولكن هذه المحكمة ظلت عاطلة عن العمل لمدة عامين. ويُرجع بعض المؤرخين إحجام إيزابيلا عن استخدامها إلى طيبة قلبها وتقواها وعدم رغبتها في إلحاق الأذى والعذاب برعيتها، في حين يرى مؤرخون آخرون أن إحجامها عن استخدام محكمة التفتيش يرجع إلى النزاع الشديد الذى احتدم بينها وبين البابا حول أحقيتها في اتخاذ القرار بشأن ممتلكات المهرطيقين المصادرة؛ حيث إنها رأت أنه ليس من حق البابا أن يتدخل فيها أو يستولى عليها، وبعد لأى أجاجها البابا إلى طلبها. وربما أحجمت إيزابيلا عن استخدام محاكم التفتيش لأنها كانت ترغب في إقامة السلام في ربوع بلادها التي فرقها المنازعات وسياسة والدها وأخيها هنرى الخرقاء.

وفي ربيع عام ١٤٨٠ سافر فرديناند (الذى ورث تاج أراجون) وزوجته ملكة كستيليا إلى طليطلة حيث كان البرلمان مجتمعاً، وكان غرضهما من هذه الزيارة هو الحصول على قسم البرلمان بالولاء لابنهما وولى العهد چوان أمير أستورياس البالغ من العمر نحو سنتين، وأيضاً ناقش البرلمان القوانين الخاصة بوضع اليهود المرتدين التى أهملت ولم توضع موضع التنفيذ، واتخذ قراراً بضرورة تنفيذها. وتقضى هذه القوانين بلبس اليهود شارة حمراء تميزهم عن المسيحيين، وأنه لا يحق لهم ممارسة المهن المحظورة عليهم، وتلك إجراءات طفيفة بالنسبة لما كانت محاكم التفتيش تفعله، وانتهز هذه المناسبة يهودى فكتب نبذة دافع فيها بحرارة عن اليهود، ولكنه من فرط حماسه لهم سطر بعض الهرطقات التى ما إن رآها هرناندو دى تالافيرا الراهب الذى صار رئيس أساقفة غرناطة حتى ثارت ثائرتة. وعندما عرض الأمر على الملكة أخذت تضيق ذرعاً بتصرفات اليهود وتأخذ خطوات فعلية لقمعها. وأمرت الملكة فى سبتمبر ١٤٨٠ الكاردينال ميندوزا وتوماس توركويمادا بترشيح محققين لتعيينهم فى محكمة التفتيش. وبالنظر إلى أن الهرطقة كانت أكثر انتشاراً وأوسع نطاقاً فى إشبيلية، فقد تم تعيين الراهبين الدومينيكان ميچويل موريلو، وچوان دى سانت مارتينو محققين فى محكمتها.

ووصل المحققون فى محكمة التفتيش فى موكب وقد ارتدوا أرديتهم البيضاء وأعطية وجوههم السوداء يصاحبهم رهط من الرهبان المألوفين (انظر كتابى «محاكم التفتيش» - دار الهلال، ٢٠٠١).

كان منظرهم مخيف «يخلع» القلوب ويث الرعب فى الأفئدة، وسار الرهبان الدومينيكان فى شوارع إشبيلية كعادتهم حفاة الأقدام ولا بسين أحشن الملابس، وفى مقدمتهم راهب دومينيكانى يحمل الصليب. واتجه الموكب فى صمت رهيب صوب دير القديس لتبدأ محكمة التفتيش عملها المروع، وكان عدد كبير من اليهود المرتدين عن المسيحية قد فروا من إشبيلية ولاذوا بضياح عدد من النبلاء والوجهاء مثل الدوق مدينا سيودينا، وكان فرارهم خطوة غير حكيمة من جانبهم؛ لأنه أثار شكوك المحققين فيهم. وأصدر المحققون أوامرههم إلى هذا الدوق وإلى الماركيز كاديز بالتبليغ عن أسماء جميع اليهود اللاتنين بهما وإلقاء القبض عليهم وتسليمهم إلى محكمة التفتيش للتحقيق معهم. وقال المحققون إن من يوفر الحماية للمهرطقين يعتبر شريكاً لهم فى الهرطقة، إلى جانب التهديد بفرض الحرمان الكنسى على كل من يعصى أوامرههم، وخشى النبلاء على أنفسهم فقاموا بتسليم المستجيرين بهم إلى المحققين الذين ألقوا بهم فى غياهب السجون. ولم يفهم سكان إشبيلية حقيقة ما حدث لأنهم اعتادوا عدم تطبيق القوانين على اليهود الذين تمتعوا بفترات طويلة

من الهدوء والاستقرار والرخاء في هذه المدينة على وجه الخصوص، مثل الثرى دييجو دى سوزان. ودعا دييجو دى سوزان وجهاء اليهود إلى عقد اجتماع في كنيسة سالقادور في إشبيلية التي دأب اليهود المتحولون إلى الدين المسيحي (المارانو) على إقامة الصلاة فيها، وهدد اليهود المجتمعون بإثارة المتاعب والقلائل ضد محكمة التفتيش إذا حاولت أن تمسهم بسوء، وارتفع صوت يهودى عجوز كان حاضرًا الاجتماع لتنبيه بنى جلده إلى المشاكل التي سوف تنجم عن المقاومة، لكن اليهود المجتمعين تجاهلوا تحذيره، بل إنهم من فرط تمسهم واحتجاجهم هددوا المسيحيين باستخدام القوة والسلاح.

ولكن السلطات في إشبيلية ما لبثت أن عرفت ما يزمع هؤلاء اليهود فعله، وكان لكبيرهم دييجو دى سوزان ابنة آية في الحسن والجمال، وفي لحظة الضعف العاطفى أفضت هذه الفتاة لحبيبها الأرستقراطى المسيحي بأمر هذه المكيدة، فقام هذا الحبيب بتبليغ محكمة التفتيش بالتمرد اليهودى المزمع بدافع من الولاء للكنيسة. وكانت فرصة ذهبية أمام محكمة التفتيش للانقضاض على صفوة رجال المال والأعمال اليهود دفعة واحدة، فقبضت عليهم وقدمتهم إلى المحاكمة على جناح السرعة، وصدرت عليهم أحكام بالإعدام، وكان الحكم الصادر بإعدام أى مهرطق يسمى عملاً إيمانياً. وقد صدرت أولى الأعمال الإيانية في مدينة إشبيلية يوم ٦ فبراير ١٤٨١، فقضت بإحراق ستة رجال ونساء وهم أحياء، وعقب صدور هذا الحكم وقف ألونسو دى هوجيدا ليلقى مواعظته بهذه المناسبة؛ حيث جرت العادة أن يقوم الكاهن بإلقاء كلمة عقب إصدار محكمة التفتيش أحكامها على المهترطين، غير أن القدر شاء أن يفقد هوجيدا حياته في وباء الطاعون الذى اجتاح مدينة إشبيلية ليحصد حياة خمسة عشر ألفاً من سكانها.

ثم أصدرت محكمة التفتيش حكمها بإعدام ثلاثة أشخاص حرقاً على رأسهم اليهودى المتآمر دييجو دى سوزان، وتقدم هذا الرجل من خشبة الحرق بكل ثبات ورباطة جأش، وكان الحبل الملتف حول رقبته يتدلى في الطين فطلب بكل أدب وتهذيب من أحد الواقفين المتفرجين أن يرفعه من الطين، وأقيم خارج مدينة إشبيلية معسكر متخصص للحرق يعرف بكامپو دى تايلادا.

واضطلع كاهن محلى اسمه ميزا بتزيين وزخرفة مكان الحرق، فكافأته الكنيسة بتعيينه المسئول عن تلقى الأموال والممتلكات المصادرة. وبعد حرق والدها المتمرد المتآمر، عانت سوزان الجميلة من الفاقة والعوز، فأشفق عليها رينولدو روميرو أسقف تيرياس وأدخلها أحد الأديرة، ولكن حياة الراهبة لم تناسبها أو تروق لها فهربت من الدير لتلقى بنفسها في أحضان عشاقها الكثيرين، وفي نهاية المطاف ارتمت في أحضان بقال كان آخر عشاقها، ثم ماتت في فقر مدقع، وبينما هى في

النزع الأخير أوصت المحيطين بها أن يعلقوا جمجمتها على البيت الذى شاهد غدرها وخيانتها وحياتها المتهتكة الفاسقة، وتقول الأساطير إن أناتها وصرخات الندم على خيانتها واعوجاج سلوكها لا تزال تسمع فى جنبات الشارع الذى كانت تسكنه.

وسارعت الجالية اليهودية بالهرب من إشبيلية إلى شتى أنحاء إسبانيا أملاً فى أن يوفر لهم الأشراف والوجهاء الحماية لهم على نحو ما أسلفنا، ولكن الكنيسة كما أوضحنا أصدرت أوامرها لهؤلاء الأشراف بتسليم أى يهودى يستجير بهم إلى محاكم التفتيش. وحتى ندرك مقدار الفزع الذى بثته محكمة التفتيش فى قلوب هؤلاء الوجهاء، نقول إن ماركيث كاديث وحده أرجع نحو ثمانمائة يهودى من المستجيرين به من حيث أتوا، وهكذا ارتفع عدد المقدمين إلى محكمة التفتيش بصورة هائلة، فاضطر المحققون إلى الانتقال من مقرهم فى دير سانت بابلو الدومينيكانى إلى مقر جديد أوسع وأرحب فى قلعة تريانا خارج المدينة، وبسبب الأعداد الغفيرة من اليهود المشكوك فى صدق تحولهم إلى العقيدة المسيحية اكتظت بهم السجون والزنايات.

وفى الفترة التى تفتشى فيها الطاعون، كان محظوراً على اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى من أصحاب السمعة الطيبة مغادرة مدينة إشبيلية إلا بعد ترك ممتلكاتهم وراءهم، واستمرت أحكام الإعدام فى الصدور بدون انقطاع، حتى الموتى نبشت قبورهم لاستخراج عظامهم. وبحلول الرابع من نوفمبر تم إحراق ٢٩٨ شخصاً بينما حكم بالسجن المؤبد على ٩٨ شخصاً. وتقدم الكثيرون منهم يعلنون توبتهم على رجاء أن تعاملهم محاكم التفتيش بشيء من الرأفة، ولكن هذه المحاكم أجبرتهم على المشى فى طوابير فى شوارع المدينة للتكفير عن ذنوبهم، فضلاً عن إصدار أحكام بالسجن على هؤلاء التائبين (انظر كتابى «محاكم التفتيش»). والتمس التائبون الرحمة لدى بابا روما الذى عبر فى يناير عام ١٤٨٢ عن استنكاره للإفراط فى استخدام القسوة معهم. ولكن محاكم التفتيش فى إسبانيا لم تكثر برغبة البابا أو تبالى بنصيحته.

واتبعت محاكم التفتيش الإسبانية نهجاً خاصاً فى محاكمة اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى؛ حيث إنها نشرت بياناً ذكرت فيه العلامات والمؤشرات الدالة على زيف تحولهم إلى النصرانية، وهى مؤشرات واهية ولا يمكن التعويل عليها أو الاعتداد بها، منها أنهم يغسلون أيديهم قبل الصلاة، ويقومون بتغيير الفراش أيام السبوت، وتسمية أبنائهم بأسماء من العهد القديم، وكذلك قيام المحتضر بإدارة وجهه إلى الحائط وهو فى النزع الأخير. وأجبرت محاكم التفتيش أحبار اليهود إلى الإدلاء بمعلوماتهم عن كل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية حتى لا يتعرضوا للعقوبة، فعلى سبيل المثال تعرض حبر من أحبار اليهود فى مدينة سرقسطة للتهديد بالموت إذا امتنع عن حث

بنى جلدته على طاعة المحققين والوشاية برفاقهم الذين لا يزالون يمارسون الطقوس والشعائر اليهودية، والتمس يهودى من الخبر أن يعفيه من عبء الوشاية بزميل له يدعى ألفونسو دى لا كابالريا لأن إفشاء سره سوف يؤدى إلى اتهام سائر أفراد الجالية اليهودية الذين تبعوه، ووافق الخبر على ذلك، غير أنه ما لبث أن تراجع عن موقفه بعد أن تبين له من المرسوم الصادر بطرد اليهود من إسبانيا فى عام ١٤٩٢ أنه يحتم عليه تبليغ السلطات، وأيضًا توقع رئيس الجالية اليهودية فى إشبيلية جوداه بن فيرجا القبض عليه بسبب تحريضه لكثير من اليهود المعتنقين للمسيحية على العودة إلى دين أسلافهم، ورغم أن جوداه تمكن من الهرب إلى لشبونة قبل القبض عليه، فإن السلطات المدنية، أو الذراع المدنى، استطاع الوصول إليه وسجنه وتعذيبه حتى الموت.

وكرر عدد اليهود المشكوك فى صحة تحولهم إلى النصرانية، الأمر الذى دعا إلى إنشاء محاكم تفتيش إضافية، وأصدر البابا يوم ١١ فبراير ١٤٨٢ قرارًا بتعيين سبعة محققين إضافيين، منهم توركويمادا كاهن اعتراف الملكة إيزابيلا الذى كان بحكم صلته الحميمة بها يتمتع بنفوذ هائل فى مملكة كستيليا.

وتوالى تعيين المزيد من المحققين فى مدن قرطبة وجمين وسيوداد ريال، وكانت عشيقة المسئول عن خزانة الكاتدرائية من أوائل ضحايا محكمة التفتيش فى قرطبة التى أصدرت أمرًا بحرق عشيقها أيضًا بعد أن تم حرقها بعام واحد، وقد أنشئت محكمة سيوداد ريال من أجل التعامل مع منطقة طليطلة، ولم يزد عدد الذين حكمت عليهم هذه المحكمة بالحرق فى ٦ فبراير ١٤٨٤ عن أربعة أشخاص، ولكن عدد المحروقين ارتفع حتى وصل إلى ثلاثين رجلًا وامرأة فى حكمها التالى الصادر يومى ٢٣ و ٢٤ من نفس الشهر.

ورغم أن هذه المحكمة لم تستمر لأكثر من عامين، فإنها قامت بإحراق ٥٢ مهرطقًا، وإدانة ٢٢٠ هاربًا، وإرغام ١٨٣ شخصًا على إعلان توبتهم والتكفير عن ذنوبهم. وفى عام ١٤٨٥ انتقل مقر هذه المحكمة إلى مدينة طليطلة، وفى طليطلة المكتظة بالتجار اليهود الأثرياء تكرر ما حدث فى إشبيلية، فقد سعى يهود طليطلة إلى الحيلولة دون تدخل السلطات فى شئونهم، كما سعوا إلى الاستيلاء على كاتدرائية المدينة، ولكن سعيهم باء بالفشل الذريع لأن السلطات هناك اكتشفت المؤامرة التى يمحونها ضدها. وبعد انتقالها إلى مقرها الجديد فى طليطلة أصدرت محكمة التفتيش فى ١٢ فبراير ١٤٨٦ حكمًا بإعدام سبعمائة وخمسين شخصًا، سيقوا فى شوارع هذه المدينة وهم حفاة الأقدام وعراة الرؤوس، وقد اصطفت الجماهير الإسبانية القادمة من الريف للفرجة والاستمتاع، وكتبت على جبين المتهمين عبارة: «تلقوا إشارة الصليب الذى أنكرتموه وفقدتموه».

وقامت المحكمة بمصادرة خمس ممتلكاتهم لتغطية نفقات الحرب التي يشنها الإسبان على المسلمين. (والجدير بالذكر في هذا الشأن أن المسلمين كانوا قد استطاعوا احتلال الجنوب الإسباني في حين ظل المسيحيون يعيشون في شمال البلاد). وتكررت الحملات التي شنّها المسلمون في الجنوب على سكان الشمال غير أن المسلمين المنتصرين ما لبثوا أن انصرفوا إلى حياة الرغد واللهو والترف بما أضعفهم في نهاية المطاف وقلب ميزان القوى تمامًا لغير صالح المسلمين، حيث ظهر عام ١٠٤٣ القائد الإسباني رودريجو دي فينار الشهير باسم «سيد كامبيدور» الذي استطاع أن يبعث الروح في صفوف المسيحيين المهزومين، وكان ذلك في فترة حكم الملك ألفونسو، ولكن جيش المسلمين ما لبث أن تمكن من استعادة الأراضي التي فقدوها، ولكن أربعة قرون انصرمت قبل أن ينجح الملك الإسباني فرديناند (١٤٥٢ - ١٥١٦) وزوجته إيزابيلا من إلحاق الهزيمة بالماحقة بالمسلمين.

وكذلك أصدرت محكمة التفتيش الأمر بحرمان اليهود المتهمين بالردة من تقلد أية وظائف عامة، وإلباسهم أحشن الملابس، وأمرهم بالسير في المواكب ستة أيام مُجمع متتالية، وأن يقوموا بجلد أنفسهم كفارة عن ذنوبهم، فإذا تخلف أحدهم عن فعل هذا اعتبر مهرطقًا منتكسًا يستحق الحرق. ثم أصدرت المحكمة في حكمها الثاني أحكامًا ضد تسعمائة تائب، ثم حكمها الثالث ضد سبعمائة وخمسين تائبًا. وقبل مضي عام واحد بلغ عدد الذين استعملت المحكمة نوعًا من الرأفة معهم خمسة آلاف شخص، وتم إحراق عدد كبير من الناس وأحيانًا كان يتم إحراق خمسين شخصًا في اليوم الواحد، بينهم رجال دين ورهبان اشتهروا بالقداسة وطهارة الذيل.

وبالنظر إلى أن اليهود استشعروا خطر محاكم التفتيش الداهم عليهم، فإنهم لم يكفوا عن مقاومته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا على نحو ما رأينا. وكانت المقاومة في مملكة أراجون أقوى وأشد من الممالك الإسبانية الأخرى، وكالعادة كان يهود أراجون يتمتعون بالثراء العريض والنفوذ الواسع، ويبدو أنهم كانوا ضالعين في اغتيال المحقق جاسبار جاجلار يوم ١٠ مايو ١٤٨٤ بسبب أحكام الإعدام الكثيرة التي أصدرها على اليهود في مدينة سرقسطة.

كان بدرو أربويس كاهن كاتدرائية سرقسطة هو الدينامو المحرك لمحاكم التفتيش، الأمر الذي جعل اليهود المتحولين يرتعون منه ويسعون إلى التآمر للتخلص من حياته. وكانت قائمة المتآمرين اليهود ضده تضم مجموعة من عليّة القوم أمثال سانكو دي باترنوى، وجابرييل سانشس، وفرنسيسكو دي سانتافي، وجيرونيمو دي سانتافي، وفي ليلة ١٥ سبتمبر ١٤٨٥ قام هؤلاء المتآمرين اليهود بالهجوم على أربويس أثناء انشغاله بالصلاة في الكاتدرائية وأصابوه بجرح بالغ أدى إلى وفاته بعد يومين من إصابته، وفيما بعد أدرجه بابا روما في قائمة الشهداء.

كان من الطبيعي والحال كذلك أن تطالب الجماهير الإسبانية بالثأر من اليهود المتآمرين، وأن تسعى محاكم التفتيش للانتقام منهم، فقبضت على المئات منهم وزجت بهم في سجون الجافيريا، وهي قلعة قديمة كان المسلمون القادمون من شمال أفريقيا قد شيدها. وكان نحو أربعين سجيناً يحشرون في زنزانة واحدة، وتم إعدام القائمين بالاعتقال بطريقة بالغة القسوة، كما أصدرت محاكم التفتيش أوامر بحرق شركائهم في الجريمة، ويقال إنه صدرت الأحكام بإعدام ما لا يقل عن مائتي متورط في عملية الاعتقال. ولكن يحتمل أن يكون هذا العدد مبالغاً فيه. وإذا كان لويس دي سانتا نجيل قد تمكن من الفرار بسبب نفوذه في البلاط الملكي فقد قُطعت رأس ابن عمه وسميه باعتباره أحد المتآمرين الرئيسيين في أرض السوق، وعلقت رأسه على عامود وأحرقت جثته. وتعرض سانكو دي باترنوى للتعذيب الأليم وحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكنه استطاع نظير المال أن يحصل على الإفراج ويعود إلى وظيفته. وقام أحد المتآمرين وهو فرانسيسكو دي سانتا في بالانتحار قبل إصدار الحكم عليه. وهرب كثير من المتآمرين إلى فرنسا فقامت محكمة التفتيش بحرق دمي تمثل أشخاصهم وبطبيعة الحال صودرت جميع ممتلكاتهم. ورغم أن المتآمر ألفونسو دي لا كابليري نائب مستشار الملكة استطاع عن طريق بابا روما الحصول على عفو وتأكيد لسلامة إيمانه بالمسيحية، فإنه - بالطبع - لم يستطع أن يمنع محكمة التفتيش من استخراج عظامه من القبر وحرقتها، كما أنه لم يستطع أن يمنعها من إصدار حكم باستتابته زوجته.

وأيضاً وقع عدد كبير من اليهود المتحولين إلى المسيحية تحت رحمة محكمة مدينة سرقسطة التي كثيراً ما أصدرت أحكامها بإدانة كثير من أفراد العائلات الكبيرة مثل عائلة سانتانجيل، وعائلة سانكيز، حتى مؤرخ البلاط الملكي واسمه مايسر چونزالو دي سانتا ماريا سقط في برائن محاكم التفتيش، فمات بعد تقديمه للمحاكمة ثلاث مرات، وفي غضون خمسة عشر عاماً صدر في مدينة سرقسطة أكثر من خمسين أمر بالإعدام، وفي عام ١٤٨٨ أنشئت محكمة تفتيش برشلونة التي راح ضحيتها أحد أفراد عائلة جيرونيو دي سانتافي، وفي العام التالي أقيمت محكمة تفتيش في مايوركا. وقد أدى نشاط محاكم التفتيش المحموم والقائم على التنكيل إلى هروب كثير من اليهود وغير اليهود من إسبانيا وبوجه خاص إلى جنوب فرنسا. ولم تقف الكنيسة مكتوفة اليدين أمام هذا الهرب المتكرر إلى البلاد المختلفة، فقد أمر البابا إينوسنت الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢) مفوضية هذه البلاد بالإسراع بتسليم الفارين إلى الكنيسة، وكان الأمراء والحكام في هذه البلاد على استعداد لاستخدام العنف لإرضاء البابا وإجابته إلى طلبه.

وفي عام ١٤٩٢ سقطت غرناطة آخر معقل للمسلمين في إسبانيا في يد القوات المسيحية

الظافرة، الأمر الذى أشعل حماس الإسبان الدينى وشجعهم على إحكام قبضتهم على اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى، وفى جو التعصب المسيحى المستيرى، سرت شائعة فى مدينة أفيلد بذبح اليهود لطفل مسيحى من لاجارديا بهدف الانتفاع من دمه فى إقامة بعض الطقوس اليهودية، الأمر الذى شحذ همة محاكم التفتيش التى أصدرت فى خلال ثمانية أعوام أحكامًا بإعدام سبعين متهمًا فى هذه القضية المختلفة.

وفى ٣٠ مارس عام ١٤٩٢ تحقق حلم توركويدا بتطهير إسبانيا من الوجود اليهودى، فقد اجتمع فى غرناطة بعد تحريرها من المسلمين ملوك إسبانيا ليقعوا مرسوًا بطرد مائتى ألف يهودى منها.

وحتى يسهل اكتشاف اليهود الذين يتظاهرون بالمسيحية، أصدرت محاكم التفتيش قائمة تعدد الممارسات والشعائر والمعتقدات التى تمارس فى الدين اليهودى ولا صلة لها بالدين المسيحى، مثل الإيمان بأن المسيح المُخلص لم يأت إلى العالم بعد، ومراعاة السبت والأعياد والمناسبات اليهودية، والامتناع عن أداء أى عمل فى هذه الأيام، فضلًا عن لبس أفخر الملابس بمناسبة حلولها. ثم هناك طريقة ذبحهم للحيوانات والماشية، ومباركة أبنائهم بوضع الأيدى على رءوسهم دون رسم إشارة الصليب، ثم إن القانون الموسوى حرم على النساء اللاتى ولدن دخول دور العبادة لمدة أربعين يومًا، فضلًا عن أن اليهود يمارسون الختان ويطلقون أسماء عبرية على أبنائهم، وكذلك يغسل اليهود أجساد موتاهم ويحلقون شعورهم ويلبسون الملابس القشبية ويرشون بيوت الموتى بالماء ويمتنعون عن أكل اللحوم فى فترات الحداد.

ويقول المؤرخ الثقة چوان أنتونيو للورنت إن المحققين فى محاكم التفتيش كانوا أشد ما يكونون حرصًا على إدانة آلاف اليهود المرتدين فى إشبيلية حتى يثبتوا للملكة إيزابيلا مدى تفشى الهرطقة فى هذه المدينة والحاجة إلى إقامة محكمة تفتيش هناك. والجدير بالذكر أن المؤرخ أنتونيو للورنت اشتهر بالصدق والأمانة كما يشهد له الروائى رافائيل ساباتينى فى كتابه الحججة «توركويدا ومحاكم التفتيش الإسبانية».

ولد المؤرخ للورنت فى مدينة لوجرونو عام ١٧٥٦، ثم صار قسيسًا فى الثالثة والعشرين من عمره بعد أن درس القانون الرومانى والقوانين الكنسية فى الجامعة. وبسبب تفوقه تم تعيينه عضوًا فى مجلس إشبيلية الأعلى، وهو المجلس الذى يدير شئون محكمة التفتيش هناك، كما عين أمينًا للمكتب المقدس فى مسقط رأسه بعد أن أثبت أن عروقه تخلو من أية دماء يهودية أو إسلامية،

وأغضب هذا الرجل بأمانته وصدقه واستقلال رأيه محاكم التفتيش، فأرسلته لأداء التوبة في أحد الأديرة، وعندما قام ناپليون بغزو إسبانيا وإلغاء محاكم التفتيش مؤقتًا، سنحت للورنت فرصة لفحص ودراسة الأرشيف الضخم الخاص بمحاكم التفتيش. وفي النهاية طرد هذا الرجل من إسبانيا فاستقر في باريس، حيث ألف كتابه المهم: «التاريخ التحليلي لمحاكم التفتيش في إسبانيا»، وأثار هذا الكتاب حفيظة كل من الكنيسة والسلطات الإسبانية، فقامت الكنيسة بشلحه من الكهنوت ومنعته من مباشرة التدريس في المدارس، واستطاع هذا الرجل الصادق والأمين قبل وفاته في السادسة والستين من عمره أن يفضح محاكم التفتيش ويميط اللثام عن جرائمها على نحو لم يسبق له نظير.

ومن المؤسف أن الرهبان كانوا أكثر جدًّا واجتهادًا من رجال الكنيسة الآخرين في اقتفاء أثر الهرطقة. ولم يتورع أحد من هؤلاء الرهبان في تعقبه لليهود المتحولين إلى النصرانية من أن يتسلق في صبيحة أحد أيام السبت سقف دير القديس بولس ليكتشف عدم انبعاث الدخان من مداخنه، مما يدل على عدم إشعال أى نار فيها، وليس هناك من يمتنع عن إشعال النار في أيام السبت غير اليهود، ومن ثم يجب تقديم كل صاحب دار يهودى لا ينبعث منها الدخان إلى محكمة التفتيش؛ لأن هذا من شأنه أن يثير الشكوك حول صدق اعتناقه للدين المسيحى.

وبطبيعة الحال استجار اليهود من تعسف محكمة التفتيش في إشيلية وقسوتها في التنكيل بهم إلى البابا سكستوس الرابع، وأكدوا له أنهم مسيحيون صادقون ما في ذلك ريب، ونظرًا للنزاع المحتدم بين هذا البابا والملكة إيزابيلا، نراه يتدخل لصالح اليهود المتحولين ويدين الممارسات القمعية التى لجأت إليها محكمة التفتيش في كستيلا، وتعلل البابا بقسوة هذه المحكمة بسحب موافقته على أحقية الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند في تعيين المحققين الذين تختارهم. ولم يحتج الملكان على تجريد البابا لهما من هذا الحق؛ لأنها استمرا في الاحتفاظ بحق مصادرة الممتلكات الخاصة بالمهرطقين، وأثلجت هذه المصادرات صدر فرديناند لأنه استخدمها في تمويل حملاته العسكرية ضد المسلمين المتمركزين في غرناطة. ورغم ازدياد نفوذ البابا سكستوس الرابع في شئون محاكم التفتيش في مملكة كستيلا، فإنه وافق على ترشيح ملكيها لتوماس توركويدا كرئيس أعلى لمحاكم التفتيش وقام بتعيينه في هذه الوظيفة. وفي ٢ أكتوبر ١٤٨٣ صار توركويدا المفتش العام، ولم يمض خمسة عشر يومًا حتى أصبح له أيضًا الولاية القضائية على مملكة أراجون.
